في الأدب والتراث

الأدب والغزو الفكري

بقلم نازك الملائكة

لعل الفرق بين الغزو العسكري والغزو الفكري هو الفرق بين المحسوس والمعنوي ، فهما كلاهما غزو وانما الفرق بينهما في الوسائل والنتائج وما يستثيران في الامة من طرق المقاومة . فالغزو العسكري يتصدى للقوة محافظا على شيء من الصراحة والعدالة . اما الغزو الفكري فانه لا يقتل بالنار والحديد وانما يهدم بالكلمة والحرف والمعنى ، وسوى ذلك من سلاح غير محسوس ، فهو ينطوي على الظلم والخبث معا .

وانما وجه الخطر في الغزو الفكري انه يستهدف روح الامة وجذورها فلا يلقيها الا وهي اشبه بثمرة امتص رحيقها فلم يبق منها غير القشر والنوى . وما ذلك الا لانه يمسخ شخصية الامة اي نبع الاصالة والابداع فيها فيشلها عن النمو والحياة . بينما لا ينجح الغزو العسكري في اكثر من تخريب مظاهر السكن والعمران ، وهي امور يمكن تعويضها لانها لا تمس جوهر الحضارة ولا روح الامة .

ثم ان مقاومة الغزو العسكري اسهل من مقاومة الغزو الفكري لسببين اثنين (الاول) ان الهجوم العسكري الصريح يستثير اغلبية افراد الامة فيهبون للجهاد ودفع العدو ، بينما لا يستثير الغزو الفكري الا القلة المدركة من عقلاء الامة وذوي الرأي فيها . وسر ذلك ان الاغلبية قلما تستطيع ادراك المعنويات ولا هي تتحسس الخطر على حياتها من عدو يهاجم الافكار والاراء .

والسبب (الثاني) ان وسائل الامة في مقاومة الغزو العسكري ميسورة هي السلاح والفداء والجهاد بينما لا يجدي مثل ذلك في مقاومة الغزو الفكري لان العدو هنا غير مرئي ولا تقتله النار ، فلا بد للامة ان تلجأ الى اسلحة اصعب كالارتفاع الى افاق الاخلاق والثقة بالنفس وكرامة الذهن العام .

وبسبب هذه الاعتبارات كلها يسهل ان تغزى الامم المتوحشة غزوا فكريا . اما الامم العريقة المتحضرة فانها سرعان ما تنهض وتقاوم وتنهض وتنتصر لان روحها لا تموت .

ولقد عرفت الامة العربية الغزو العسكري مرارا عديدة دون ان تعرف الغزو الفكري . ووجه ذلك اننا كنا في الماضي مصدر المعرفة والضياء في العالم ، وقد اعطينا حضارتنا الى الامم المجاورة حتى ونحن مغزوون يحكمنا الاجانب ، ومن ابسط الادلة على هذا ان الفرس الذين حكموا الارض العربية فترة ، لم يحكمونا الا عسكريا لاننا كنا خلال ذلك نحكمهم فكريا فلم يغادروا ارضنا الا وقد اتخذوا ديننا ولغتنا . ولذلك تعج لغتهم اليوم بالاف الكلمات العربية ، فاذا تكلم الفارسي بفصحى الفارسية تحول كلامه الى العربية مع تغيير بسيط في قواعدها .

واما في عصرنا هذا ، بعد قرون الغزو الطويلة التي انهكتنا وشلت حياتنا ، فاننا فقدنا القيادة العلمية والصناعية ، وبات علينا ان نتعلم الدروس التي فاتتنا . ولقد كان يمكن لنا ان نختار ما نأخذ عن الغرب ، فلا نسمح له ان يمس روحيتنا وجوهر حضارتنا ، غير ان الذي وقع غير ذلك فقد غزانا الغرب على جبهات حياتنا كلها فلم يترك جانبا الا حاول اقتحامه وهدمه . وقد كنا حتى الان سلبيين في موقفنا من الغزاة ، فتركناهم يغيرون نظام بيوتنا وطراز مدننا ، وسمحنا لهم ان يلقنونا اداب مجتمعهم في السلوك والمعاملة واسلوب الحديث ، وبينا نلبس ما يلبسون ونأكل ما يأكلون . وما من شك في ان بعض ما اخذناه عنهم نافع وانما ننكر موقفنا العام من هذه المدينة الوافدة . فقد بتنا نترك ما هو جوهري في حضارتنا وما نتفوق به على الغرب ، لنأخذ مكانه بضاعة رخيصة تضر بنا .

ولقد عرض للفكر العربي انهيار مماثل بازاء الحضارة الوافدة ، بلغ في هذه السنين الاخيرة اقصاه ، حتى اصبحنا نقلب المجلات العربية فنجد فيها مقالا عن (ارثر ملر) يجاوره مقال عن (بيير كورني) يليه مقال عن (برونو) ، ثم مقال عن (فولتير) ، فنعجب من ان تفكيرنا بات منحصرا في اداب الغرب فلا نتحدث الا عنهم وكأن ليس لنا ادب على الاطلاق . يضاف الى ذلك ان هؤلاء الكتاب لا يتخذون موقفا عربيا مما يكتبون عنه من ادب الغرب ، وانما يصدرون في تعليقاتهم عن عين الموقف الذي يصدر عنه الكاتب الغربي . فلو ترجمنا المجلة الى لغات اوربا لما وجد الغربي فيها اي جديد يشوقه . وما من انهيار يصيب امة من الامم افظع من هذا ، فان انتاج هؤلاء الاعلام الغربيين يحتوي على اتجاهات ومبادىء تخدم الفكر العربي في صميمه ، فلو ارتفعنا الى مستوى شخصيتنا الحضارية لكانت لنا تحفظات واعتراضات على ما يقولون ، لا لاننا ننكر ما في انتاجهم من جوانب الجمال ، وانما لمجرد اننا ابناء امة لها ادبها وحضارتها ودينها ، فاختلاف وجهات النظر امر بديهي متوقع ، واما الاعجاب بكل ما يقولون ويعتقدون ، فلا يدل على اكثر من اننا قد فقدنا ايجابيتنا وبتنا لا نفكر .

ولقد شاع بين الناشئة العرب اليوم احساس ضعيف تمكن من نفوسهم مؤداه ان علينا اذا اردنا ان نبني الادب العربي ، ان ننبذ تراثنا وماضينا جملة (وان نقبل) التراث الغربي دونما مناقشة او تدبر . وعلى اساس هذا الاحساس غرق الناشئة في الاخذ والاقتباس والتقليد ، حتى بلغ الامر مبلغ الخطورة . ولقد تأملت مظاهر الغزو في ادبنا الحديث طويلا فوجدتها تكمن في اربع جهات سأجملها فيما يلي :

١ — موقفنا من الاخلاق

واول مظهر من مظاهر الغزو في ادبنا اليوم اننا فقدنا اللمسة الاخلاقية فيما نكتب ، فمن سمات الفكر العربي الحق انه فكر اخلاقي ، يدعو الى ارتفاع العقل الانساني الى مراتب الخير والكمال .

وحسبنا من ذلك ان كلمة (ادب) عند العرب كانت ترتبط بادب النفس كل الارتباط ، فالاديب هو الذي يروي من الشعر والنثر ما يرتفع بالروح ويسمو بالخلق . وقد بقي الشعر العربي ، قبل اختلاط العرب بالاعاجم ، صورة تنطق بالفضيلة والمروءة وكمال النفس . وقد قال احد الخلفاء الامويين لمعلم اولاده (علمهم الشعر يمجدوا وينجدوا) لان الشعر كان صورة النفس الماجدة ذات المروءة والخير . وقد ثبت هذا المعنى في عصورنا كلها . فبقي الادب من شعر ونثر يعرض اروع الصور في السلوك والمعاملات ، كما يحفل بنماذج صافية من الاخلاق الجنسية . وبحسبنا ان نتذكر العشرات من دواوين الحماسة والشعر ، ومجموعات الخطب والرسائل ، واقاصيص النجدة والمروءة وكتب الارشاد

الاخلاقي وقد ترك المتصوفة وحدهم تراثا اخلاقيا عظيما كله نبل وانسانية . وحسبنا ، على سبيل المثال ، ان نشير الى كتاب (الفتوحات المكية) لمحيي الدين بن عربي فقد وردت في الجزء الرابع منه مئات الصفحات في الاخلاق فيها من الخلق الكريم ما لا حدود لجماله وكماله. على اننا لا نحتاج ان نذهب بعيدا في التمثيل فان كتابنا الكريم (القرآن) يعرض من صور الاخلاق ما يكفي للافصاح عن روحية العربي . ومثله في الحديث النبوي واخبار الصحابة وادعية السجاد الامام زين العابدين وامثالهم ومؤلفات ادبية لا حصر لها في ادب النفس ومعاني الاخلاق . وقد تمثلت هذه القيم عمليا في قصصنا الشعبي عن سيف ابن ذي يزن وعنترة العبسي وابي زيد الهلالي وامثالهم من قصص المروءة والبطولة .

ولم تفقد كلمة (ادب) مدلولها الاخلاقي الا في عصرنا ، فنحن اليوم نكاد نصدر في ما نكتب عن المفهوم الغربي للكلمة ، حيث تعني كلمة (أدب) Literature المعلومات والعلم ، ولا تتصل بالاخلاق . ويرجع فصل الغربيين بين الادب والاخلاق الى عهود قديمة فنحن نجد في مذهب ارسطو الذي ادرجه في كتابه عن الشعر (Poetics) ان جمال الادب لا يستند الى الاخلاقية ، وانما هو معنى منعزل لا شأن له باية قيمة خارجية ، ومن السائغ عند ارسطو ان يكون الادب جميلا كل الجمال حتى وهو غير اخلاقي ، فلا دخل للمبادىء والمثل في الادب.

وقد سيطر هذا المذهب على الفكر الاوروبي فبقي يتحدر من صفحة الى صفحة عبر تاريخ الادب والنقد وممن اسنده واضاف اليه الناقد الالماني ليسنغ (LESSING) في كتابه المعروف (Laocoon) ولسنا ننكر ان طائفة صغيرة من مفكري الغرب قد رفضوا هذا المذهب ودعوا الى ما يقرب من المفهوم العربي ، ومن هؤلاء الشاعر الروماني هوراس (HORACE) والناقد الانكليزي فيليب سيدني (SIDNEY) والشاعر الالماني فريدريك شللر (F. SCHILLER) الا ان هذه الاصوات تاهت في خضم الفكر المادي فلم تؤثر تأثيرا محسوسا، وبقيت الصورة الثابتة لاداب الغرب منفصلة عن الاخلاق حتى قال الفيلسوف المعاصر بنيديتو كروتشه (CROCE) نصا (لا شأن للاخلاق في الادب) وهذا الحكم يعبر افصح تعبير عن تيار التبذل والتحلل في ادب اوروبا اليوم .

وتمتد جذور هذا التيار الى القرن التاسع عشر وقد بالغ في الدعوة اليه انصار المذهب الطبيعي (Naturalism) الذين جعلوا واجب الاديب ان يصف كل ما يقع للانسان دونما اعتبار لقيم الاخلاق ومصلحة المجتمع . وحسبنا للتمثيل ان نشير الى قصة اميل زولا (ZOLA) المعنونة Germinal فقد هبط الى ادنى مستويات الروح والخلق ، فوصف عالما موبوءا تلعب به الغرائز الحيوانية على شكل يلفي الحضارة ويرد الانسانية الى عهود الوحشية والبربرية . وما من شيء يبدو لنا اشد ايلاما من هذا فان زولا يرتفع في القصة نفسها الى افاق عالية من الفن والابداع ، فكأنه يضع فنه وانسانيته في خدمة التفسخ ، ويساهم في قتل الحضارة .

ولقد اقتبس ادباؤنا العرب هذه النظرة الى الادب في اتجاهيها السلوكي والجنسي حتى اصبح ادبنا يضم اشنع النماذج في الانسانية والخلق ، فالقصاصون المحدثون يصورون في قصصهم اشخاصا يعاملون اباءهم في قسوة وخشونة واحتقار ويرسمون ابطالا يتطاولون على اساتذتهم . وكم في القصائد والقصص من بذاءة وتبذل في اللغة ، وقد اصبح نموذج البطل ان يجعله المؤلف كثير السب واللعن ، ضيق الصدر ، ضعيف الخلق لا يترفع عن شيء . وشاعت صورة البطل المثقف الذي يبصق في الطريق ولا يعترف باية قيمة للاشياء والاشخاص. وكل هذا مناقض لادب النفس العربية الذي عرفه تراثنا . وانما هو موقف منقول من الغرب ، فذلك ما نجد في القصص الحديثة هناك، وفي المذكرات والرسائل ، فكان من علامات الثقافة الجديدة هناك ان يكون الانسان مبتذلا قاسيا مفرورا لا يتورع عن شيء .

اما النظرة الجنسية في ادبنا الحديث فنلمسها في ذلك الركام الهائل مما كان قبل يسمى بالادب المكشوف ، فأصبح اليوم لا يسمى حتى بذلك ، لان ادب الجنس اصبح يعتبر مظهرا من مظاهر الواقعية والتحرر الفكري والثقافة الحديثة . فما يكاد الناشيء يكتب ، حتى يصطنع الفرق في الرذائل والاستهتار بالقيم . ولا نهاية اليوم للكتب والمجلات التي تقذف بها المطابع ويصور فيها الانسان العربي وكأنه قد تحول الى حيوان اعجم لا يرتفع الى اعلى الجسد والحواس .وقد قرأنا في دواوين الشعر التي صدرت هذه الاعوام عجبا عجابا من الاسفاف والجموح ، حتى اصبحت هذه ظاهرة اكيدة تطبع الانتاج الجديد . ومن عجب ان الحكومات العربية ما زالت غافلة عن هذه الظاهرة ، فلا نراها تتخذ اجراء بازائها ، لا في حقل النشر ولا في حقل التعليم والتوجيه . والواقع ان وراء هذه الظاهرة ثلاثة معان كلها خطير ينذر بالشر ...

أ ـ المعنى الاول ان هذا الادب المتحلل ، الذي يهدم الاخلاق والمجتمع ، يتعارض مع الدعوة القومية التي يعيش لها المجتمع العربي اليوم . فالقومية بناء وحياة ، بينما ادب الجنس هدم وانتحار. تهدف القومية الى بعث الامة العربية بقدراتها الاصيلة وماضيها الحضاري الوهاج ، بينما يهدف ادب الجنس الى هدم الاخلاق والعقائد والقيم . ومن ثم الى هدم المجتمع . قال ابن خلدون في مقدمته (اذا تأذن الله بانقراض الملك من امة حملهم على ارتكاب المذمومات وانتحال الرذائل وسلوك طرقها فتفقد الفضائل منهم جملة ولا تزال في انتقاص الى ان يخرج الملك من ايديهم .) واستشهد بالاية الكريمة (واذا اردنا ان نهلك قرية امرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا) والحق ان من يتأمل هذا الادب الجديد تأملا نزيها ينتهي الى الشعور باننا نعمل للقومية العربية بينما نترك ادبنا يعمل ضدها .

ب ـ المعنى الثاني ان هذا الادب لا يعبر تعبيرا سليما عن البيئة العربية المعاصرة ، وذلك لان الفرد العربي المتوسط ما زال يعد قضية الشرف فوق كل القضايا . والمثل الاعلى في حياتنا الشعبية ، وفي حياة الاسرة العربية ، هو مثل العفة والاحتشام وادب اللسان . واذن فان هؤلاء الادباء الناشئين قد انبتوا عن بيئتنا وباتت مراياهم تعكس اشباحا وظلالا من خارج الوطن العربي .

ج ـ والمعنى الثالث ان هذا الادب ليس ادبا صحيا سليما . لان تضخيم اثر الجنس في الحياة ينم عن انحراف في الطبيعة الانسانية ، والانسان السليم مزيج متوازن من العقل والروح والعاطفة والغريزة، لا يطغى فيه جانب على جانب . ومن كمال المجتمع ان تكون اغلبية افراده من المتزنين الذين يعطون كل جانب من طبيعتهم حقها . ولا نظنه يخفى ان الاستغراق في حمأة الحواس ينتهي الى زوال الكرامة وضعف الارادة واختلاط الذهن . ومن ثم فان طغيان المعاني الحسية على ادبنا ليس اقل من مظهر يدل على عدم التوازن وينذر بتصدع خطير في حياتنا العامة .

٢ ـ موقفنا من الدين

كان لاقبالنا الشديد على قراءة اداب الغرب ونقلها الى لغتنا اثر سيىء في حياتنا العقلية الحديثة ، فما لبث ان اصابها بالانحراف. فلقد اخذنا عنهم فيما اخذنا موقفهم من الدين ، والتقطنا نظرتهم المادية الى الحياة . وموقفهم من الدين يختلف اختلافا جسيما عن موقفنا نحن ـ فان الدين الاسلامي يرتبط كل الارتباط بالفكر ، وقد قامت حول القرآن اركان اللغة والادب والفقه والمنطق والتصوف والفلسفة جميعا بحيث تعد هذه العلوم كلها تفريعات لعلم القرآن ترتكز اليه وتدور حوله . لا بل ان طلب العلم ونشره قد بقي هو نفسه واجبا دينيا مفروضا يؤديه الطالب والعالم قربى الى الله . ومن ذلك ان النحوي العلامة ابن مالك كان يخرج ويقف على باب مدرسته ويقول (هل من راغب في علم الحديث او التفسير ؟ قد اخلصتها من ذمتي) فان لم يجد راغبا او طالبا قال (خرجت من آفة الكتمان) وتفسير ذلك ان العربي كان يعتقد ان لله حقا (فيما استودع العلماء من فهم وعلم وانه اخذ عليهم البيان(١)) فلا يصح لهم السكوت عن نشر العلم واظهار

الحق وتعرية الباطل .

اما في اوروبا فان الدين يتصف بشيء من الانعزال عن الحياة فلا يرتبط بالادب والفكر الا من بعيد ، فالغربي يعد الدين لله والادب للحياة وكأن الحياة نفسها ليست لله ، كما يعتقد العربي . ولذلك الموقف سببان اثنان :

(الاول) ان المسيحية، بتقريرها لقيام الخطيئة الاولى ، وبدعوتها الى التفكير بالرهبنة والامتناع عن الزواج ، قد احتفظت بنظرية مثالية لها جمالها غير انها عسيرة التطبيق . ولذلك بعد الدين عن الحياة بعدا طبيعيا ، وهو امر لم يعرفه المجتمع المسلم حيث الدين يجعل الزواج سنة مفروضة .

(الثاني) أن المسيحية ، التي نزلت في بلاد العرب ، قد فشلت في تحويل الغربي تحويلا كاملا عن وثنية ابائه ، فبقي ثنائي المعتقد ، يصلي لله ويؤمن ، رغما عنه ، بالهة الاغريق ، حتى انه يقسم في حياته اليومية بجوبيتر ، كبير الهة الاغريق ، وهو يذهب يوم الاحد الى الكنيسة للصلاة ، ولا يلبث ان يرجع ان منزله ليقرأ الفلسفات اليونانية ويكتب ادبا طابعه وثني تتردد فيه اسماء الالهة الشريرة التي كان يعبدها اليونان والرومان . وانما نصف هذه الالهة بانها شريرة لانها كما قرر (سقراط) نفسه ، لا تتورع عن ارتكاب الشر والجريمة والصغائر فهي كالبشر وانما تتفوق في القدرة على الايذاء والظلم . وبسبب هذه الوثنية الغربية بقي المسيحيون العرب اوثق صلة بالمسيحية الحقة من مسيحيي الغرب .

ولقد دعا الغزاة واعوانهم عبر السنين الماضية الى ان نحتضن الثقافة الغربية بكل ما فيها دونما تدبر او مناقشة ، فكان مما اخذناه عنهم هذا الفصل العجيب بين الدين والحياة . وقد كان لذلك تاثير سيىء في حياتنا وفكرنا ، لان الدين الاسلامي يكاد يكون هو الحياة نفسها، فلا نستطيع انتزاع احدهما الا بانتزاع الاخر ، فقد كان الاسلام دينا الهيا وثورة سياسية وفكرية واجتماعية معا . ولذلك اهتزت له الارض العربية اهتزازا خصبا ، واحدث انقلابا عميقا في مناحي الحياة معا . ولم يترك الاسلام في حياة العربي شاردة ولا واردة الا ضبطها واحصاها. وقد كان القرآن كتابا شاملا فيه اللغة والادب والشريعة والاخلاق جميعا فبني عليه تراثنا كله . فاذا فصلنا الدين عن الحياة لم يكن معنى ذلك الا ان نفصل العروبة عن تراثنا وحضارتها . ونحب ان نضيف الى هذا ، ان القرآن ـ باعتباره كتاب الدين الاسلامي والثقافة معا ـ سيبقى ابدا كتاب كل عربي مهما كان دينه . فالمسيحي العربي والحضارة، لا يستطيع أن ينزع من نفسه وذهنه اثار القرآن ، لان التراث الاسلامي قد كان وما زال الثقافة الكبرى للعربي . وها نحن نرى اخواننا المسيحيين يحققون غير قليل من كتب التراث الاسلامي في اخلاص يثبت ما نقول اجمل اثبات .

ولقد اتخذ الادب الجديد الذي ينشره اليافعون العرب موقف الغربيين من الدين ، فظهرت عندنا الوثنية مصحوبة بالالحاد في ادنى مستوياته ، وهو مستوى الكفر بدافع التقليد والنقل ، فلا شك في ان هذا الالحاد اوطأ مرتبة من الحاد مصدره شك يعتري النفس فيضللها ويحيرها . وقد واكب هذا ابتعاد الجيل اليافع عن القرآن وما فيه من اجواء روحية وكنوز اخلاقية وثروة لغوية وادبية . وكل ذلك لا يبشر بالخير فاذا مضينا فيه قطعنا جذورنا الحضارية واضعنا الروح العربي جملة .

٣ ـ موقفنا من اللغة العربية

كانت وسيلة الغزاة العظمى في اضعاف لغتنا في الترجمة . والترجمة في ذاتها اغناء للغات وهد لافاقها ، فهي حق لنا وضرورة نتمسك بها . غير ان الاشياء النافعة في الحياة الانسانية يمكن ان تتحول بسوء النية الى شر وضرر . ولذلك حرصت بعض المؤسسات المشبوهة والجماعات المغرضة على أن تعهد بترجمة امهات الكتب الغربية الى كتاب ضعاف غير متمكنين من العربية ، فصاغوا تلك الكتب العظيمة صياغة حرفية ركيكة ، كان لها اثران سيئان في حياتنا الفكرية (الاول) ان كثرة قراء هذه الترجمات قد نجحت في تحويل الركاكة الى مذهب في التعبير ، فادى ذلك الى اضعاف المستوى العام للغة . و (الثاني) ان هذه الترجمة الركيكة حرمتنا فرصة تكتسب فيها لغتنا تعبيرات عربية جديدة لها الفصاحة والجدة معا . لان الكتاب المترجم اذا صيغ بعربية سليمة لها خصائص لغتنا افاد اللغة واغناها . اما اذا ترجم حرفيا فانه يخسرنا كما نخسره .

والمثل الذي نختاره للترجمة الركيكة وما تصنع هو ترجمة الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد فقد ترجم هذا الكتاب الجليل ، الذي يقدسه المسلم والمسيحي معا، ترجمة ركيكة لا يقبلها الذوق السليم فأثرت في اضعاف الذوق الادبي العام واشاعت فينا العجمة . واخواننا المسيحيون العرب ذوو حظ كبير من البلاغة العربية وقد نبغ منهم كتاب كبار وباحثون وشعراء اغنوا مكتبتنا فلا يصح لهم السكوت على مثل هذه الترجمة التي تشوه كتابهم ولغتهم معا وتحرمنا قراءة سيرة السيد المسيح والتمتع بما لها من روحية وجمال .

وقد انحطت لغة الترجمات واقتربت من الحرفية عاما بعد عام ، حتى درجت اليوم منها لغة ركيكة قواعدها واساليبها غير عربي . وسوف ندرج فيما يلي مظاهر العجمة العامة في هذه اللغة .

١ ـ كثرة الاصطلاحات الاجنبية التي يصر المترجمون على ابقاء صيغتها الغربية مثل قولهم فولكلور وايديولوجية ، واكاديمية، وكلاسيك، وميتافيزيكية ، وبيروقراطية ، وتكنيك ، وليبرالية ، وامبريالة ، وامثال ذلك كثير .

٢ ـ استعمال قواعد النحو اللاتيني مع انها في مقاييسنا النحوية تعد غلطا ، مثل تعدد المضافات الى مضاف اليه واحد وهو ما يسمى عندنا بلغة (قطع الله يد ورجل من قالها) : ومثل الفصل بين المضاف والمضاف اليه بكلمات اجنبية وهو ركيك مستحيل في لغتنا لان المتضايفين ينزلان منزلة الاسم الواحد . ومن هذه الاساليب السقيمة تقديم الحال على عامله كقولهم (محملا يعود سيدي) ، ومنها تتابع الاضافات كقولهم (تقرير رئيس لجنة مكافحة امراض المنطقة الحارة) وكل هذه الاساليب الغربية تصدم السمع العربي صدما اكيدا.

٣ ـ استعمال اساليب بناء العبارة اللاتينية وهي تخالف اساليبنا مخالفة مرجعها الى الفروق بين طبيعة اللغات . ومن ذلك تأخير الفعل في الجملة فلا يرد الا بعد أن يتقدم عليه سطران كاملان من الظروف والمجرورات والمعطوفات كقولهم (بعناية شديدة واهتمام ، ومن دون ان يتحدثوا في ذلك الموضوع مباشرة ، أو يشيروه ، على نطاق عام ، وبعد ان فرغوا من دراسة التقرير ، اشتغلوا في توزيع الملابس على سكان الحي) . وهذا مخالف لما تعرف لغتنا حيث يتقدم الفعل على معمولاته لانه اشرف ما في العبارة، ولا يتقدم المعمول الا في حدود الفصاحة ، في مجالات بلاغية محدودة .

٤ ـ استعمال وسائل البلاغة اللاتينية بدلا من العربية كقولهم (انسحب بانتظام ، والسوق السوداء ، والحرب الباردة ، ومؤتمر القمة) حتى نكاد ننسى ان لنا تلك الكنوز من وسائل البلاغة ولسنا بهذا نحاول أن نغلق لغتنا بازاء استعارة جميلة قد تنفعنا ترجمتنا، وانما نريد التنبيه الى موقفنا العام من ذلك فنحن اليوم نكاد نقف عن التفكير باللغة العربية فنترجم كل صيغهم دونما تدبر .

٥ ـ تقليد العبارة الغربية الحديثة في تعقيدها وغموضها كما في كتب (هنري جيمس JAMES) و (وولتر بيتر W. PATER) وذلك بالاكثار من الجمل الاعتراضية ، والفصل بين المبتدأ والخبر بكلمات كثيرة تربك القارىء . ومنه ايضا استعمال العبارات الطويلة طولا فادحا . وكل ذلك مما لا تسيغه بلاغتنا .

ولا بد لنا بعد هذا الاستعراض ان نذكر بان انكارنا للاساليب اللاتينية لا يعني اننا ننتقصها في لغاتها الاصلية ، وانما نعد تلك

(١) صورة معدلة من عبارة لعبد العزيز بن يحيى الكناني (المحيدة). تحقيق جميل صليبا .

الاساليب بليغة في اللاتينية ركيكة في العربية ، لان لكل لغة قواعدها وقيمها البلاغية . وما قواعد اللغات الا مزيج من نفسية الامم وتاريخها وحضارتها وفكر الامة يرتبط بقواعد لغتها واساليب بلاغتها كل الارتباط بحيث لا نملك ان نترجم لغات الغرب ترجمة حرفية الا اذا قضينا اولا على الفكر العربي .

ومن الحق ان نشير كذلك الى ان الترجمات الضعيفة في اسواقنا لا تصدر كلها عن سوء النية وانما ضعف بعضها نتيجة الجهل باللغة والتراث .

وقد ابتليت العربية في هذا القرن بكثير من الدعوات المشبوهة التي نادى بها مغرضون يضمرون السوء للعروبة ولغتها، فرددها من العرب طائفتان طائفة الشعوبيين الذين يقصدون اضعاف العربية ، وطائفة البسطاء الذين تخدعهم الفاظ الحرية والتجديد فيسيئون دونما قصد. فمن هذه الدعوات ، الدعوة الى نبذ الحرف العربي واتخاذ اللاتيني في مكانه ، والدعوة الى استعمال اللهجات العامية في الاذاعة وفي ادب القصة والمسرح .. وقد تصدى لهذه الدعوات كثير من كتابنا الافاضل فناقشوها وردوها الى اصلها المشبوه المريب . وما من جهة تستفيد من اثارة هذه القضايا مثل الغزاة ، فهم يعلمون انه اذا وقع الفصل بيننا وبين تراثنا انتهى الامر بنا الى اخطر تصدع عرفته الامة.

٤ ـ موقفنا من المعنوية الغربية

يحرص الغزاة واعوانهم من الشعوبيين على قتل المعنوية العربية واحلال المعنوية الغربية محلها ويكادون اليوم ينجحون في ذلك ، فقد طلع في السنوات الاخيرة ادب عربي جديد تنعكس فيه سمات النفسية الاوروبية ، ومظاهر الادب الغربي ، وقد استعان الغزاة في عملهم هذا بوسائل معنوية مكنتهم من اجتذاب الجيل العربي الناشىء الذي يملك بقلة علمه وتجاربه ، استعدادا فطريا للتأثر . والوسيلة الكبرى للتأثير في اليافعين هي استعمال القيم الرفيعة التي يحرصون عليها مثل الانسانية والحرية ، فباسم هذه القيم يتم تضليلهم فيوجهون توجيها يحطم المعنوية العربية .

اما الانسانية فان الشر الذي يتستر وراءها اليوم هو قولهم (الادب العالمي) . وبه يوحون لليافعين ان هناك ادبا عالميا يتخطى الحدود ويعبر عن نفسية الشعوب اجمعين ، بمعزل عن ظروفها وشخصيتها ، وان هذا الادب لا يناقش وانما يقبل في كل مكان ، فمن لم يقبله كان جامدا او رجعيا او جاهلا . وهم يضعون على عرش العالمية مجموعة من الاسماء الغربية في الغالب ويسألون الشباب ان يعجبوا بكل حرف يقوله اصحابها دونما فحص ولا مناقشة . وابرز هذه الاسماء تأثيرا في حياتنا جان بول سارتر الاديب والفيلسوف الفرنسي اليهودي . وسارتر من الناحية الادبية ذو فكر مبدع يسمو الى الذرى العالية وانا اول من يقر له بالقيمة والقدرة . وانما وقع الانحراف المفرض في فرض ارائه على القارىء الطالع . ووجه ذلك ان الاديب الغربي قد يكون عظيم الشهرة ، ذا تأثير في اوروبا كلها دون ان يعني ذلك ان اراءه تنفعنا او تتفق مع مطالب حياتنا الاجتماعية والفكرية . والواقع ان اراء سارتر اغلبها تناقض روحيتنا وحضارتنا فلا مصلحة لنا في اعتناقها الا اذا اردنا ان نهدم انفسنا . ذلك ان جان بول سارتر ناشر فلسفة الغثيان ،ومضمونها ان المجتمع بغيض ، وان وجود الناس حولنا هو الجحيم ، وان الاخلاق والمثل والتقاليد سخافات يتلهى بها السطحيون ، وان الحياة خواء فارغ فلا يستحق الاهتمام فيه الا الجسد والجنس ، وان الانسان غير مسؤول لا امام الله ولا امام الضمير ولا امام المجتمع . ولقد انتهى الجيل اليافع الى تصديق خرافة العالمية فلم يقف عند الاعجاب بالاشكال الادبية واللغات الفكرية والاساليب التعبيرية ، وانما قلد النظرة واعتنق الاراء .

واما القيمة الثانية التي يستغلونها في تضليل اليافعين العرب ، فهي الحرية ، وقد زعموا انها معنى مطلق لا يتقيد بشيء فكل احرية افضل من كل تقيد .وما من الحاد اجتماعي واخلاقي افظع من هذا . فان المطلق معنى لا وجود له في الحياة الانسانية ، لان منفعة الجماعات تتحكم فيه فتقيده وتشد به . وهذا الزعم يجعل الحرية تتعارض مع الفضيلة ، ولا ينبغي للاخلاق ان يتعارض شيء منها مع شيء . وحسبنا دليلا على ذلك التعارض ان الحرية المطلقة للفرد تناقض مصلحة المجتمع، ولذلك تقيد بحفظ حقوق الاخرين ، ومصلحة الجماعة كلها . وعلى هذا تبطل حجة الذين ينادون بحرية الاديب في نشر ادب الجنس والالحاد ، فان هذا الادب يهدم المجتمع ومن حق الجماعة ان ترفضه . فلا يحق للمواطن ان يطعن امته في صميم كيانها الروحي والخلقي بدعوى حقه في الحرية .

وهكذا اتجه ادبنا الحديث بدوافع من الانسانية وحرية الفكر ، الى ترديد اراء الغربيين ، دونما فحص او مناقشة ، فانتشرت روحية التشاؤم في ادبنا ، وشاع الاحساس بان الحياة عبث وان العدم خير من الوجود، وان المشاعر الطيبة قد للانسان ، وان الانسان غير مسؤول امام شيء . ولا يمكن للباحث المتأمل الا ان يلاحظ مدى بعد هذه النظرة عن طبيعة الحياة العربية اليوم ، فنحن نمر بفترة خصيبة رائعة ، وقد رأينا مدننا الكبيرة تنهض من الفراغ في ظرف ثلاثين سنة فقط وشهدنا الاستقلال من الحكم الاجنبي وقيام الحكومات الوطنية ونهوض التعليم ورأينا كيف اختلف جيلنا في معارفه واسفاره وعلومه عن جيل آبائنا . واليوم نعيش فترة انتصارات القومية العربية وتكاد اعيننا تكتحل بفجر الوحدة . وما من شك في ان الفرد العربي احسن حالا واكثر املا مما كان فلا ندري من اين يأتي هؤلاء الادباء بالعدمية واليأس وانكار الحياة . اترى حياتنا الادبية تسير في اتجاه معاكس لحياتنا القومية ؟ وتبحث عن الجواب عند نقادنا فلا نجد لديهم اكثر مما نسمع من الناقد الغربي من ان هذا الجيل ـ كما يقولون ـ (ذو تركيبة مزاجية معقدة تعقد الحياة التي يحياها) فكأنهم لا يرون الفرق العظيم بين الفرد العربي والفرد الاوروبي . والواقع ان بيننا وبين الغرب ثلاثة فروق جوهرية .

(الاول) اننا ابناء امة تؤمن بالروح والروحيات وتضعها فوق المادة ، بينما ما زال الغرب يؤمن بالمادة والماديات . ومن مظاهر ايمان الفرد البسيط هنا بالروح انه يتوكل على الله في اموره كلها فلا يعرف اليأس ولا القنوط ، وهو مؤمن بالحياة كل الايمان ، تتحدر اليه هذه النظرة من عهود سحيقة . وقد عرفنا في التراث العربي كله صفة الايمان والتفاؤل ، فحتى شعر الزهاد كان مليئا بالحياة بما فيه من تطلع الى الله ، وايمان بالاخلاق والتضحية ومساعدة الاخرين .

(الثاني) اننا نختلف عن الغرب في الظروف التاريخية التي نمر بها ، فنحن نمر بفترة حياة وانبعاث تهتز لها ارضنا كلها . ان مشاكلنا القومية ، وزحفنا نحو فلسطين ، ومعركتنا في حرب الفقر والجهل والمرض والبطالة ، كل ذلك يمنحنا هدفا يستغرق حياتنا وكياننا . والمعروف عند علماء النفس ان المشغولين لا يجدون وقتا للقلق واليأس والاحساس بالفراغ . وفي مقابلنا يجد الغربي نفسه فارغا له كثير من الوقت وقليل من الاهداف . ان في حياته فراغا روحيا عميقا سببه عدم ايمانه بالله ، وخلو حياته من الهدف الكبير الذي يضفي الجمال والرونق على الحياة .

٣ ـ واخر الفروق بيننا وبينهم ان الغربي يرى غذاءه يصل اليه عن طريق استعمار الامم وسرقة قوتها ، ومن ثم فهو يحس قلقا غامضا لا يعرفه العربي الذي يأكل القليل الحلال ويحمد الله وينهض الى عمله. وقد اشار الفيلسوف الالماني المعاصر (البرت شفايتزر) A. SCHWEITZER في كتابه (فلسفة الحضارة) (١) الى اثر هذا الظلم في نفسية الفرد الاوروبي الذي اصبح لا يقوى على الاحساس بجمال الحياة .

ان هذه الفروق بيننا وبين الغرب تجعل نقلنا لموقف اليأس والعدمية والفراغ امرا لا معنى له سوى تخلينا عن كرامتنا ومصلحتنا وشخصيتنا . فكأننا نبكي في يوم عيدنا . ويحاول بعض الادباء ان يبرروا الموقف بقولهم ان هذا الجيل اليافع هو جيل المأساة الذي شهد ضياع فلسطين ، فهو ينكر الحياة ويدعو الى الموت لذلك السبب . وذلك تعليل ابعد عن الحقيقة من السابق ، فان المأساة التي وقعت عام ١٩٤٨ قد الهبت الوطن العربي كله بنار الكفاح والعروبة فقامت الثورات العظيمة في القاهرة والجزائر وبيروت وبغداد واليمن ، وعبر هذه

(١) ترجمة الدكتور عبد الرحمن بدوي .

السنين لم تكن نفسيتنا متخاذلة فقد انبعثت آمـــال عظيمة ونهضت العزة القومية في القلوب ، وشهدنا لحظات سعادة عميقة وانتصارات لا تنسى . فاللون الذي يغلب على حياتنا لون اخضر بهيج ، وفي مثل هذا الاطار المشرق يصبح الادب المتشائم المعلق على الصلبان ابعد مـــا يكون عن التعبير عن نفسية الامة . وصف له الا ان ادباءنا وقفوا عن التعبير عن مشاعرهم وراحوا يكررون ما يقول الاديب العربي . ولذلك نجـــد القومية العربية تغني بينما مسجلاتهم تذيع النواح وصراخ العـــدم . والفجر يتنفس على روابينا اجمل ما يكون بينما تشع قصائدهم الظـلام والمـوت .

٥ ــ الحلول والمقترحات

يبدو لنا ان الدواء الناجع في مثل ازمتنا ان تكـون لنـا فلسفة شاملة ، تمس كل ما هو جوهري في الحياة العربية ، وتقـرر المبادىء والمثل الكاملة التي ترفع مجتمعنا الى ذروة الكمال . ومن دون هـــذه الفلسفة لا نستطيع ان نجابه عدوا غزا حياتنا على الجهات كلها . والحق ان افتقارنا الى نظرية فلسفية كاملة للحياة العربية ، بابعادها كلهـــا يجعلنا مضيعين لا ندري اين نتجه ولا ماذا نأخذ او ندع . فلقد دخـل حياتنا من العلوم والفنون والفلسفات ما قلب تفكيرنا واحدث فـي جونا الفكري بلبلة خطيرة وانشقاقا في وجهات النظر . ولذلك نرى المثقفين في العالم العربي منشعبين في الموضوعات كلها ، كـــل يدين بمذهب . وقد يقال ان هذا من الحيوية فنقول انه ليس كذلك ، فانما يكـــون الخلاف من علامات الحيوية حين يكون المخالفون قلة في مقابل اجمـاع الاغلبية على شيء ما . اما عندما يزول الاجماع ولا يبقى الا الخلاف فان ذلك ناقوس الخطر يدل على قيام تخلخل ذاهب في الاساس الفكري للامة.

اما بنود هذه الفلسفة التي نطلبها فينبغي أن تدعو الـى وضعها الحكومات العربية ، على ان تجمع لها اهل العلم والفضل والنظـــر والعروبة ، فيتفقوا على ما ينفع وما يضر ، ويحددوا الطريق . فـــاذا اجتمعوا على شيء اخذت الحكومات على نفسها تطبيق هـــذه الفلسفة تطبيقا كاملا بالوسائل التالية :

١ ــ تعديل مناهج التعليم في المدارس العربية تعديـــلا يتناول الجذور والاسس مع الالحاح على موضوع اللغة العربية ، واضافـــة موضوع الاخلاق الى السنوات كلها .

٢ ــ انشاء مؤسسة عربية كبيرة تشرف عـــلى الترجمة وتنسق جهود المترجمين العرب في ديارهم كلها . وسيكون من واجب هـــذه المؤسسة ان تدرس ما يحتاج المواطن العربي الى ترجمة دونما نظر الـى عالمية الاسماء ، فقد يكون الاديب عالميا وتكون فلسفته مناقضة لاهدافنا فتسيء الينا بدلا من ان تخدمنا .

٣ ــ انشاء قانون جديد للطباعة والنشر يجعل الصحافة والانتاج في خدمة الامة العربية لا في مصلحة المؤسسات الاجنبية وتجار الافكار والقيم . وهذا كفيل بان يطهر الاسواق مـــن كتب الجنس والابتذال والسطحية .

٤ ــ تحديد مجال الاذاعات وخاصة المرئية منها ، ووضع فلسفة عامة لمناهجها تراعى فيها مصلحة المواطن . وستترفع هذه الفلسفة عن اقرار افلام العصابات والسفاكين وروايات التفسخ الخلقي ، لان مشاهـــدة الصبيان والبنات لمثل هذه الاشرطة كل مساء حرى بان يهدم كل مـــا تبنيه المدرسة والتربية المنزلية من مثل اخلاقية .

واخيرا ارجو ان يعني المؤتمر باقامة جمعية موحدة للادباء العرب لها فروع في كل قطر ، تعمل في نشر التراث العربي وكشف جمالـــه للجيل الناشيء ، باقامة معارض الكتب والقـــاء المحاضرات وتنظيـــم المناظرات واصدار المجلات وتشجيع التأليف المتزن السليم . ونحـــو ذلك ومن الله التوفيق . (١)

البصرة — نـــازك الملائـــكة

(١) لطالع القارىء التعليق الذي القاه الدكتور سهيل ادريس على هذه المحاضرة في مكان اخر . (التحرير)

صدر حديثا عن :

منشورات عويدات

	غ٠ ل٠
● **الناعقون (رواية لبلزاك)**	٥٠٠
قدم لها وراجعها الدكتور شكيب الجابري	
● **قوت الارض لاندريه جيد**	٣٠٠
مراجعة الدكتور شكيب الجابري	
● **بيروت والنافذة البيضاء شعر**	٢٥٠
هشام الكرمي	
● **الهندسة والمهندس**	٨٠٠
للمهندس محمود الشكرجي	
● **الضمان الاجتماعي ــ اندريه جيتنغ**	٢٠٠
● **التخلف المدرسي ــ اندريه لوغال**	٢٠٠
● **دراغانا ــ رواية ــ**	٢٥٠
تأليف محمد برجاوي	

●

تاريخ الحضارات العـام

احدث موسوعة حضارية

١ ــ الشرق واليونان القديمة	٢٥٠٠
٢ ــ روما وامبراطوريتها	٣٠٠٠
٣ ــ القرون الوسطى (تحت الطبع)	

●

قريبا جـدا :

آفاق الفكر المعاصر

تأليف نخبة عالمية معاصرة من اساطين الاختصاص تتناول جميع ميادين المعرفة في أكثر من ٨٠٠ صفحة من القطع الكبير

الثمن ٢٠٠٠ غ٠ ل٠

منشورات عويدات

ص٠ ب٠ ٦٢٨ بيروت ــ لبنان

تلفون : ٢٤٢٦٦٠